مواكب سلاطين مصر

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

إن أفئدتنا المتعلقة بمصرنا العزيزة تتوق إلى كل ما يرتبط بهذا على المجيد، فكما أن نسيمها حبيب وحرها حبيب؛ وكما أن سماءها خذ بالألباب في صفائها، وتنعش فيها الأمل بسحابها ومطرها؛ كما أن حاضرها نزهة الأعين وبهجة الأنفس، كذلك تجد النفس ماضيها مسارح محبوبة للخيال والفكر. فلنعد إلى عصر من ت المصور الماضية المجيدة، ولنتجرد من عصرنا الحاضر إلى حين فرغ إلى استجلاء بعض لذات تلك الأيام الغابرة، ولنشارك لفكر مواطنينا الأعزاء الذين ملأوا أيامهم جلالاً وبهجة

لنعد إلى القرن الثالث عشر، ولنتخط إليه ستمائة عام على أجنحة لخيال، ولنقف حول ركاب ملوكنا الأمجاد الذين كانوا زينة لمصر وحماة الديار عند ذلك، ولنشارك مواطنينا من الأمداد لذين كانوا يصطفون على جوانب الطرق وقلوبهم خفاقة ونفوسهم ملوءة بالاجلال الممزوج بالحب والعطف لهؤلاء الحماة، ولننظر إلى لسلطان العظيم وقد أقبل في موكبه والناس يضجون بالدعاء له فيتلقونه بأحسن الاستقبال. حتى إذا ما صار منهم على كثب رفعوا الأكف وقرأوا الفاتحة ودعوا له بالنصر والقوة على حماية البلاد، ولنشارك مواطنينا في ذلك الدعاء فلقد كان أولئك السلاطين تفيض قلوبهم بخير ما تفيض به قلوب الملوك من حب لخير الرعية وتفان في سبيل مصلحتها العامة.

كان أحد هؤلاء السلاطين الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، وكان يلقب بالعلائي البندقداري نسبة إلى الأمير علاء الدين أيدكين البندقداري أحد أمراء الملك الصالح نجم الدين أيوب، وهو الذي اشتراه عند ما كان مملوكا صغيراً ثم آل ملكه إلى السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب، ولهذا يلقبه التاريخ أيضاً بالصالحي النجمي. وقد تعلم وترقى في الوظائف على النظام البديع الذي كان يسير عليه أمراء ذلك العصر في تعليم مماليكهم وترقيتهم حتى صار أميراً قائداً، وذلك لما أظهره من الشجاعة في الحرب ولا سيما في موقعة المنصورة في أيام الملك المعظم توران شاه ابن الملك الصالح أيوب، وهي الموقعة التي هزم فيها الفرنج وأخذ ملكهم لويس التاسع أسيراً، ومازال حتى صار (أتابكاً) للعساكر أي قائداً عاماً لهم

ثم استولى على الملك، فكان الثالث من سلاطين الأتراك الذين جرى العرف بتسميتهم سلاطين المماليك

وكانت مصر في أيامهم تحيط بها عيون الأعداء من كل الجهات، فبينما كان أهل أوربا يدبرون الخطط ويجندون الجيوش الجرارة لغزوها، كان أحفاد جنكيز خان ملوك التتار العظام يدفقون جموعهم نحو الشام بعد أن اجتاحوا بلاد العراق وخربوها وأسالوا فيها الدماء أنهاراً، فكان العصر عصر حرب ودفاع، وكانت الروح الغالبة روح الحرب والدفاع، وكان واجب الأمة الحرب والدفاع، وكان بيبرس من خير من مثل تلك الروح واستعد بكل قوة للحرب والدفاع، فكانت كل مظاهره مصبوغة بصبغة النضال والكفاح. كان الخليفة العباسي قد جاء الى مصر مطروداً مشرداً بعد أن نكب التتار بلاد العراق، جاء الى مصر يطلب فيها الأمن ويلتمس الحماية من سلطانها الأعظم بيبرس، وأحب أن يكافىء ذلك السلطان على حمايته ومساعدته مقدماً، فقلده السلطنة المصرية بصفته الحاكم الشرعي للدولة الاسلامية، وبذلك عمل على تثبيت مركزه وجعله حاكما شرعيا الى جانب كونه حاكما بالسيف. فأمر السلطان فضربت لهذه المناسبة خيمة كبيرة في المطرية، وجلس السلطان على كرسي عظيم في صدرها، وكان طويل القامة مليح الشكل أبيض الوجه مستدير اللحية، وقد اختلط سوادها بالبياض يكاد يغلب عليه. وقد اصطف الأمراء حوله بحسب مراتبهم، لا يلتفت أحد منهم الى يمين ولا الى يسار، ولا يكلم أحد من الى جواره ولا يشير اليه، فلقد كان هذا خروجا على الآداب المقررة في المجلس السلطاني، ولم تكن ملابس هؤلاء الأمراء قد بلغت بعد ما بلغته من الزينة والزركشة في أيام السلاطين الذين أتوا فيما بعد كالسلطان قلاوون وابنه الملك الناصر محمد، وذلك لأن بيبرس كان لا يجد من فراغه متسعاً للتفكير في غير عدة الجهاد والنضال. فلم تكن

ملابس الأمراء غير أقبية (أو جبب) بيضاء واسعة ضيقة المناطق ساذجة لا ذهب فيها ولا جواهر، بل كانت من الدمن المصبوغ، وكانت أخفافهم من جلد بلغاري أسود، وفوق تلك الأخفاف خف ثان اسمه السقمان، وكان فوق الأقبية أو الجبب كران فيهما حلق وأبزيم ومعاليق فيهما صوالق (أوجيوب) جلد كبار يسع الواحد منها أكثر من نصف ويبة من القمح، ويفرز فيه منديل طوله ثلاثة أذرع، وكانت شعورهم مضفورة، وضفائرهم مدلاة في كيس حرير أحمر أو أصفر، وفوق رؤوسهم قلانس صفراء مضربة تضريباً عريضاً

وجلس عن يمين السلطان الخليفة والقضاة من المذاهب الأربعة، فإن بيبرس جعل لكل مذهب قاضياً كبيراً بعد أن كانت ولاية القضاة لقاض واحد من علماء المذهب الشافعي. ثم جلس عن يمين القضاة بعض موظفي الدولة مثل وكيل بيت المال أو (وزير المالية كما نسميه الآن)، ثم ناظر الحسبة أو (هو محافظ القاهرة)، وكلاهما من القضاة وأرباب القلم. وجلس عن يساره الوزير ثم كاتب السر أو (الأمين الأول)، وجلس أمامه ناظر الجيش وجماعة من الكتاب الكبار أو كما كانوا يسمونهم الموقعين

ووقف من وراء السلطان صفان عن يمينه ويساره من الأمراء الكبار وهم رؤساء الأمراء والقواد في الجيوش، وجلس الى اليمين واليسار على بعد نحو ثمانية أمتار من السلطان ذوو السن من الأمراء القواد وهم أمراء المشورة في الدولة. وجلس بعد ذلك من هم أدنى منهم مرتبة من أكابر الأمراء، ثم وقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان من هم دونهم من الأمراء والقواد بحسب درجاتهم، فكان أقربهم من السلطان أمراء المئين وهم مقدمو الألوف، وكان كل منهم أميراً على مائة فارس، وقد يزيد عدد فوارسهم عشرة أو عشرين فوق المائة؛ وكان يليهم أمراء الطبلخاناه، وكان كل منهم أميرا على أربعين فارساً، وقد يزيد عدد فرسانهم إلى السبعين؛ وكان بعد هؤلاء جميعاً أمراء العشرات ولكل منهم الامارة على عشرة فرسان، وقد يزيد عدد فرسانهم إلى العشرين

ونصب منبر وصعد عليه كاتب السر الشريف، فقرأ على الأمراء في ذلك الحشد الحافل كتاب الخليفة العباسي أحمد المستنصر بالله الذي لجأ إلى مصر وأحسن السلطان استقباله، ثناء طيب من الخليفة على السلطان المعظم فأصبح بذلك، على البلاد بحق الاستيلاء والسيف، وبحق تقليد خليفة الـ الذي كان العالم الاسلامي يرى فيه رمز الحق الشرعي للحـ وأصبح سلطاناً على مصر والشام وكل ما يفتح من بلاد الأ

ثم حملت إلى السلطان خلعة الخليفة، فلبسها وهي جبة سو وعمامة بنفسجية، وطوق من ذهب، وقلد بسيف عربي. انتهى الاحتفال ركب السلطان بالخلعة والطوق والأمراء وأمامه حسب ترتيبهم، وحمل الصاحب بهاء الدين محمد بن ابن حنا تقليد الخليفة، على رأسه وسار قدام السلطان. ثم الموكب حتى دخل القاهرة من باب النصر ومر في الشـ الأكبر من المدينة، والسلطان في خلعته الجديدة راكب فرس عربي عليه كسوة بديعة من الحرير الأصفر، وقد ركب جواره أحد أمراء المئين راكباً على فرس يحمل المظلة وهي من الأطلس الأصفر المزركش بالذهب، من أعلاها قبة من ا نفسه، وفوقها طائر من الفضة المذهبة

ونلقت الجموع الزاخرة من أهل القاهرة ذلك المو بالتهليل والطرب؛ وكان السلطان كلما مر بجماعة ضجوا بالد بالنصر والفتح وقرأوا الفاتحة تبركا وتيمناً؛ ومازال ذلك المو حتى بلغ القلعة. فلم يبق ركن من أركان القاهرة لم يهتز لـ والاشتراك في الحفاوة به

والآن فلنخرج مرة أخرى لنشارك أجدادنا أهل القا في التمتع برؤية موكب آخر سائرين في ركاب السلطان إلى ميا بجوار القاهرة كان ملوك مصر إذ ذاك يقصدونه للرياضة والـ ويلعبون فيه لعبتهم المشهورة وهي (الكرة)؛ وكانوا يخرجو لذلك إلى أحد ميدانين: الأول الميدان الناصري الكبير، والـ ميدان سرياقوس. وكان الخروج إلى كل من هذين الميدانين أوقات معينة من السنة، فالركوب إلى الميدان الكبير الناصر كان يقع في شهري سبتمبر وأكتوبر؛ وذلك الميدان على ـ النيل في جهة بستان الخشاب فيما بين القاهرة ومصر القديمة وكان الخروج إليه في كل يوم سبت من الشهرين المذكورين

كان يودى لو استطعت فى هذه الكلمة أن أصف مواكب
ج السلطان إلى كل من هذين الميدانين ، ولكننى أكتفى بوصف
ب واحد وهو موكب الخروج إلى الميدان الكبير الناصرى
خرج السلطان الملك الناصر صباح أول يوم السبت بعد
النيل بادئاً موسم لعب الكرة والصولجان فى ذلك الميدان
بيح ؛ وكان خروجه فى الصباح ، ولكن الشمس كانت قد
لت سلطانها على الأحياء فبدأ حرها يشتد وتكاثر الناس
دحموا على الطريق ليروا السلطان وهو يخرج سائراً نحو الغرب
قناطر السباع القائمة فوق الخليج ، وذلك فى موضع ميدان
يدة زينب الآن ، ومن هناك سار نحو النيل إلى الميدان . وكان
أول الموكب فارسان يلبسان ثياباً من الحرير الأصفر وعلى رأس
منهما كوفية من الذهب على هيئة طاسات الحرب ، وكانا
كبان فرسين أبيضين بحلية بديعة من الذهب ، وكان على كل
الفرسين كساء من الحرير الأصفر المزركش بالذهب يغطى
تحت أذنيه إلى موضع السرج . فلما مر هذان الفارسان أقبل
أثرهما السلطان وهو راكب على فرس عربى أصيل هيئته
كسوته مثل هيئة فرسى الفارسين المتقدمى الذكر لا فرق بينه
بينهما ، حتى كان الناظر إلى الفرسين المتقدمين يظنهما قد أعدا
كوب السلطان نفسه ؛ وكان أمام فرس السلطان غاشية السرج
لها بعض أمراء المماليك الخواص ، وهذه الغاشية عبارة عن
لد مزركش بالذهب ليُغطى به سرج السلطان إذا نزل ، وكان
امل تلك الغاشية يحركها زهواً وافتخاراً ذات اليمين وذات
شمال ، وإلى جانب حامل هذه الغاشية فارس آخر يضرب على
شُبابة ، وهى آلة موسيقية لا يقصد بنغمها الاطراب ، بل يقصد
ها إيقاع المهابة فى النفوس

وكان فوق رأس السلطان العصائب السلطانية ، وهى من الحرير الأصفر المزركش بالذهب منقوشة باسمه وألقابه . وكانت العادة أن تحمل هذه العصائب فوق رأس السلطان عند الركوب إلى هذا الميدان خاصة وفى يوم العيد ، وعندما يدخل إلى القاهرة عائداً من السفر أو إلى مدينة من مدن الشام

ولم يكن فى هذا اليوم يستظل بالمظلة ، فإن رفعها كان خاصاً بأيام العيد أو عند دخول المدينة أو فى المواكب التقليدية الكبرى

وجاء خلف السلطان جماعة الأمراء أولهم المشاة يحفون به على هيئة دائرة ، وهم الطبردارية الذين يحملون الأطبار المشهورة ولماها السيوف المموجة التى يسميها الفرنج (الساير) ، وكانوا فى العادة من كبار الأكراد ، ويليهم بعد ذلك الأمراء الفرسان يسيرون بحسب مراتبهم : فنائب السلطنة ، ثم الوزير وأرباب الوظائف الكبرى ، ثم أمراء المئين مقدمو الألوف ، ثم الطبلخانات ، ثم أمراء العشرات ، ثم المماليك

فاذا ما انتهى الركب إلى الميدان واستقر بمجلس السلطان هنيهة فى ظلال الأشجار الوارفة التى حول الميدان أمر ببدء اللعب واشترك هو مع الأمراء الكبار فلعبوا الكرة بالصوالج وهم ركوب على الخيل ، وانتهزوا فرصة اللعب فاظهروا من المهارة فى ركوب الخيل والتحرك فوقها أثناء جريها ما يدهش الألباب

فاذا انتهى اللعب فى ذلك اليوم دعا السلطان الاثنين اللذين برزا فى اللعب من الأمراء وأنعم عليهما بحوائص الذهب وهى مناطق ثمينة من الذهب يبلغ ثمن الواحدة أحياناً مئتى دينار أو يزيد ؛ وكان هذا التقليد مخصوصاً لكبار الأمراء المقدمين ، فكان السلطان بذلك ينعم بالحوائص على كل الأمراء المقدمين تدريجاً حتى يتم انعامه على الجميع مرة فى مدى ثلاث سنوات أو أربع

وبعد أن ينتهى من الانعام بالحوائص يدعو المبرزين من كل طبقات الأمراء ويهدى اليهم الخيول الجياد ؛ فكان يعطى الأمراء الكبار من أمراء المئين والطبلخانات خيولاً مسرجة ملجمة ، ثم يختار بعض أمراء العشرات فيجعل لهم حظاً من ذلك الانعام أيضاً ، ويزيد عطاءه للمقربين من كبار أمراء حرسه الخاص فيجود عليهم بالجياد عشرات لا آحاداً

فلقد كان خروج السلطان إلى ذلك الميدان أحد موسمين للانعام بالخيول على الأمراء ، وكان الموسم الآخر عند خروجه إلى مرابط خيله فى الربيع

وبعد ، أفلم تكن تلك التقاليد المقررة جديرة بأن نذكرها ونحتفظ بذكراها ليكون جيلنا الحاضر مرتبطاً بالأجيال الماضية ارتباط البناء بالأساس ؟

محمد فريد أبو حديد